ملامح الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا أواخر الحكم العثماني حتى الاحتلال الإيطالي سنة 1911م

د. مسعود عبد الله مسعود
قسم اللغة العربية – كلية التربية– أبوعيسى
جامعـــــــــــــة الزاويـــــــــــــــة

شهدت ليبيا من أواخر القرن التاسع إلى القرن الواحد والعشرين تقلبــات سياســية واستعمارية خطيرة من حكم الأتراك إلى سيطرة الاستعمار الإيطالي على البلاد، إلى حكم الإدارات إلى حصول ليبيا على استقلالها هام 1951م، إلى قيام معمر القذافي بانقلابه في الأول من شهر سبتمبر عام 1969م، ثم كانت ثورة 17 فبراير المجيــدة فــي 17 مــن فبراير عام 2011م، وقد طرأ على ملامح الحياة السياســية والاقتصــادية والاجتماعيــة تقلبات وتغيرات كثيرة سأكتفي في هذا البحث بإبراز الجانب الفكري والثقافي في ليبيا إبّان أواخر فترة الحكم العثماني وإلى بداية الاحتلال الإيطالية سنة1911م، ومما لا شك فيه أنّ

مادة هذا الموضوع وفيرة ودسمة، ولكنّي سأتناولها بشيء من الإيجاز بهدف تقريب الصورة إلى القاري، وكانت الحركة الأدبية في ليبيا مواكبة لهذه التقلبات وهي كالآتي:

ملامح الحياة الفكرية في ليبيا أواخر العصر العثماني:

ظلّت ليبيا قروناً عديدة تحت الخلافة العثمانية، وقد تميزت هذه الفترة الطويلة عامة بالعقم الفكري، والخمود الأدبي[1]، فالناظر إلى الحركة الفكرية والثقافية والأدبية في ليبيا سيلحظ ركوداً ثقافياً شأنها في ذلك شأن الأقطار العربية التي حكمها الأتراك، وغلب على هذه الفترة من خلال الجانب الفكري، والأدبي التقليد والمحاكاة والنسج على طريقة القدماء، وغلب على قصائد شعراء هذه الحقبة التخميس، والتشطير، والتضمين، والمبالغة في استخدام المحسنات البديعية في الشعر بعيداً عن المقومات الفنية.

أمّا عن نظام التعليم في ليبيا أثناء الحكم العثماني، والذي كان مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية فقد تميز أواخر العصر العثماني بظهور التعليم المنظم إضافة إلى وجود التعليم التقليدي، وسأتناول هذا الجانب من خلال الآتي:

1- نظام التعليم الديني:

أقصد هنا بالتعليم الديني ذلك النوع من التعليم القديم الذي يجري في الكتاتيب والمساجد والزوايا، ويمكن أن نطلق عليه عامة التعليم الديني وكان يتضمّن ما يلي:

أ- الكتاتيب:

الكتاتيب جمع كتّاب، والكتاتيب غالباً ما تكون حجرة أو أكثر ملحقة بالمسجد، أو منفصلة عنه، وتوجد في المدن، والبوادي، والأرياف، ولكنّها كانت بشكل أكثر في المدن وضواحيها.

أمّا عن نظام الدراسة بالكتّاب فيُقبَل بالكتّاب الطلاب صغاراً كباراً أي من غير تحديد سن معينة للقبول، ثم يبدأ الطالب تعليمه بتلقينه حروف اللغة العربية فيحفظها بحركاتها، ورسمها وطريقة كتابتها، وهو ما يعرَف عندهم باسم (الرشيمَة)، وعادة ما

تكون الكِتابة على لوح صغير، حيث يخصص لكل طالب لوح خاص بـه، وهـذا اللـوح ينظّف بالماء أوّلاً ثم يطلى بنوع

خاص من الطين يسمى (الطينة)، وبعد ذلك يبدأ الشيخ بتلقين طلابه قصار السور، وهكذا يستمر الشيوخ والفقهاء في تلقين طلابهم حتى يحفظوا كتاب الله أو أجزاء منه وقـد انتشرت الكتاتيب في سائر أنحاء ليبيا أثناء فترة الحكم العثماني لدورها الكبير في تحفـيظ القرآن الكريم وأصول الشريعة وتعليم النشء مبادئ القراءة والكتابة، ومبادئ النحو وعلـم العروض، وقد ساعد على انتشارها قلة المدارس الحديثة، وقلّـة المصـروفات المتعلّقـة بالمبنى.

ب- المساجد:

إضافة إلى إقامة الصلاة تقوم المساجد بتكملة دورها الديني وذلك بتعلـيم العبـاد أصول الدين، وتحفيظ القرآن الكريم، وبتعليم النشء خاصة، والكبار عامة مبادئ القـراءة والكتابة، ومبادئ النحو والإملاء وعلم العروض عن طريق فقهاء وأئمة ومعلمين داخـل المساجد، حيث يجلس الطلاب في شكل حلقات كبيرة يتعلمون تلك العلوم بطريقة تقليديـة، وقد تخرج في هذه الحلقات كثير من علماء البلاد فيما بعد، وقد حرص الليبيـون – إلـى وقتنا هذا- بإرسال أبنائهم إلى المساجد للتعلّم لِما لها من دور كبير، وإيجابي فـي تربيـة النشء، حيث ينظر إليه كثير من الناس على أنّها الأساس المتين في تنشئة الطفل بـالرغم من تطور التقنيات العلمية حالياً.

ج- الزوايا:

الزوايا هي نوع من أنواع التعليم الديني الذي عرفه المسلمون منـذ أمـد بعيـد، والزوايا جمع زاوية، وهي عبارة عن حجرة أو حجرات كانت ملحقة بالمسـجد، أو فـي مكان ما يتلقّى فيها الناس على مختلف أعمارهم المعارف والعلوم والآداب، وغالبـاً مـا كانت العلوم التي يتلقّاها الدارسون فيها علوماً دينية، ولذلك لا تختلف الزوايا كثيـراً عـن الكتاتيب، ولعل من أقدم الزوايا تلك الزاوية التي أسسها الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن

عبد القادر بن عبد الرحيم المعروف بنبيل جدّ العواسج حين قدم مدينة الزاوية الغربية في حدود القرن الخامس الهجري واستقر بمنطقة الصابرية وبنى بها مسجداً جعله منارة لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي[2] وفي القرن السابع الهجري ذكر الشيخ أحمد القطعاني في كتابه الإسلام والمسلمون في ليبيا: أن زاوية البازه بمدينة زليتن أسسها الشيخ أحمد النجار قنونو سنة 620 هـ [3] وقد ذكر التجاني في رحلته سنة 706 هـ أنّه مرّ بزاوية أولاد سهيل[4] وهي الزاوية المعروفة بزاوية (بوعيسى) نسبة إلى مؤسسها أبو عيسى سهيل المتوفى 673هـ كذلك ذكر التيجاني: زاوية أولاد سنان الكائنة بمدينة الزاوية الغربية[5]، ثم أخذت الزوايا في الانتشار بشكل سريع وواسع في جميع أنحاء البلاد، وظهرت أواخر العهد التركي معاهد دينية ومدارس إسلامية في طرابلس والجغبوب ومصراتة وزليتن تغذّي الدارسين بالقيم الأخلاقية، فكان لها دور لا يمكن إنكاره في حفظ اللغة العربية وآدابها، وفي ظهور الأدباء والكتّاب الذين كان لهم دورهم في الحفاظ على اللغة العربية وآدابها[6].

وكانت الدراسة بهذه الزوايا لا تخضع لسن معينة أو وقت معين، وهو لون من الدراسة عرفته مدارس الشرق العربي، وحيث تنشأ الدراسة العلمية يتكوّن بجانبها الأدب بفروعه من نثر وشعر، فالنحو شواهد وفيه نظم، وبه رواية شطرة أو نادرة[7].

وقد تركت الزوايا الدينية أثراً ملموساً في البلاد، فانتشرت الدراسة بالمعاهد العلمية مثل: المعهد الأسمري بزليتن، وزاوية أحمد الزروق بمصراتة، وزاوية الدوكالي بمسلاتة، وجامع أحمد باشا ومدرسة عثمان باشا بطرابلس، وزاوية أبي ماضي بجبل نفوسة، وتوجه بعض الطلاب إلى الجغبوب للدراسة بزاويتها، وقد أدّت هذه الزوايا دوراً مهمّاً في المحيط العلمي والأدبي وحفظ اللغة العربية، فكان لها أثرها الكبير في البلاد، وغير ذلك من المدارس والمعاهد التي كانت ملحقة بالمساجد فيها ظلال من العلم وأنماط الأدب، وبها مكتبات لا تخلو من كتب قيّمة [8].

وتمثّل الكتاتيب والزوايا نظام التعليم الديني في ليبيا، فهي بمثابة مراحل التعليم الابتدائي والإعدادي والمتوسط من التعليم العام الحديث، وكان كثير من ميسوري الحال يشدّون الرحال بعد حصولهم على قدر كبير من العلوم والمعارف إضافة إلى حفظهم القرآن الكريم أو أجزاء كبيرة منه إلى الجامع الأزهر بمصر أو جامع الزيتونة بتونس، أو الحصول على منحة للدراسة بتركيا لإتمام دراستهم، وبعد عودتهم يلتحقون بسلك القضاء الشرعي غالباً، أو يعملون في مجال التدريس، وقد ساد هذا النوع من التعليم حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية(9) ولا يزال الليبيون يعنون بالتعليم الديني إلى يومنا هذا.

2- التعليم الحديث:

ظهر التعليم الحديث في ليبيا أواخر العصر العثماني حيث أنشأت الحكومة التركية عدداً من المدارس الحديثة استجابة إلى الحاجة الماسة إلى اتباع منهج تعليمي جديد يتفق وروح العصر، وتحقيقاً للرغبة في الإلمام ببعض المعارف، والعلوم الحديثة التي لم تكن معاهد التعليم القديمة قادرة عليها ومن هذه المؤسسات المدرسة الحربية التي كانت أبوابها مفتوحة أمام الليبيين والأتراك على حد سواء وإن كان أغلب الطلاب الذين التحقوا بها من الأتراك، كما أنشئت عدد من المدارس الابتدائية الحديثة وبعض رياض الأطفال المختلطة في كل من طرابلس وبنغازي وبعض المدن الليبية الكبيرة، كما أشأت الحكومة التركية معهدين لإعداد المعلمين أحدهما في طرابلس والآخر في بنغازي ومدرستا الفنون والصنائع إحداهما للذكور والأخرى للبنات في طرابلس(10) إضافة إلى عدد من المدارس الرشدية، حيث استطاع بعض الليبيين بفضل هذه المدارس تعلّم اللغة التركية، ومن ثم الاطلاع على الآداب التركية إضافة إلى لغتهم العربية، وأصبح خريجو هذه المدارس يشغلون الوظائف الإدارية في الدولة، وكان بإمكان طلاب هذه المدارس السفر إلى تركيا، واستكمال دراستهم بالآستانة في مدرسة العشائر التركية، وقد أسهم خريجو هذه المؤسسات الحفاظ على اللغة العربية وآدابها، كما ساعدت هذه المؤسسات أيضاً على الانبعاث الثقافي الذي عرفته تلك الحقبة من تاريخ ليبيا الثقافي.

جاء في جريدة برقة" إنّ الثقافة العربية والإسلامية تدهورت تــدهوراً محسوســاً ولولا وجود بعض العناصر المثقّفة من مدارس تركيا وجامعة الأزهر والزيتونــة لكانــت ليبيا أفقر من أية ثقافة عربية وإسلامية"[11]، وبذلك تكون هذه الأروقة العلمية قد أســهمت في تنشيط الحركة الثقافية في الوطن العربي، وحافظت على اللغة العربية، وأحيت آدابهــا وفنونها.

3- الرحلة في طلب العلم:

الدارس للحياة الثقافية والفكرية في ليبيا يلحظ كثرة الرحلات التي قام بها بعــض الليبيين من مختلف أنحاء البلاد إلى الجامع الأزهر بمصر مثل: إبــراهيم العوســجي، وأحمد الرجيبي، وصالح المقرحي، والطاهر الزاوي، وعمر الميساوي وغيرهم كثير، واتجه بعضهم إلى جامع الزيتونة بتونس مثل: عبد الحميــد القمــودي الــذي ارتحل إلى تونس، فدرس النحو والمنطق وعلم التوحيد عن أكابر علمائها، كما ارتحل إليها أيضاً الشيخ عمر القريو فأخذ عن علمائها، وتعلّم بعضهم بجامع فاس بالمغرب مثل: الشيخ محمد كامل بن مصطفى الذي نال شهادة من هناك، وكــان عبــد الحميد القمودي قد ارتحل من تونس إلى فاس بالمغرب الأقصى، حيــث أخــذ عن علمائها علوماً جمّة وغيره كثير، وقد تركز معظم النشــاط الثقــافي والانجــاز الثقافي في جهود هؤلاء العلماء الذين جمعوا بين علوم الدين واللغة وفنون الثقافــة والأدب فحملت هذه النخبة المثقّفة والتي نالت حظّاً من التعليم علــى الرقــي بالمســتوى الثقــافي والأدبي في ليبيا[12].

4- الطباعة والصحافة:

ظهرت الطباعة بالحروف العربية أوائل القرن السادس عشر بإيطاليا حيث طبــع أوّل كتــــاب باللغة العربية سنة 1514م[13] وهو كتاب دِيني، ثمّ طُبِعَ ســفر الزَّبُــــور سنــة 1516م، وطُبِعَ القرآن الكريم في البندقية لكنَّهم أعدموا طبعته تلك خوْفا من تأثيره

على معتقداتهم الدينية، واعتمدوا الترجمة الإيطالية الأولَى للقرآن الكريم، وقد كانت مطابع تلك الحقبة خاصة بالإرساليات التبشيرية، وقد انحصر نشاط تلك المطابع في نطاق دائرتها الديني مثل: مطبعة (ديرقزحيا)، وهي أول مطبعة بالحروف العربية دخلت الوطن العربي سنة 1810م، وأما بالنسبة لليبيا فلم تعرف الطباعة إلا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث أدخِلت أوّل مطبعة حجرية في الستينيات من القرن التاسع عشر، تلتها مطبعة الولاية التي كان قد أحضرها محمود نديم باشا، كذلك استورد علي رضا باشا الجزائري مطبعة من أوربا بعد
أن تبيّن له عدم صلاحية المطابع السابقة[14].

وقد استمر العمل بهذه المطابع حتى تأسست مطبعة الفنون والصنائع التي أنشئت مع إنشاء مدرسة الفنون والصنائع سنة 1895م، ثمّ ظهرت مطبعة التّرقي بعد قيام الثورة في تركيا وصدور قانون جديد عن الخلافة العثمانية ينص على حرية الصحافة، فدفع ذلك مجموعة من الشباب الليبيين المثقفين إلى المسارعة لتأسيس أوّل شركة إعلامية أهلية بإيعاز من الشيخ محمد البوصيري – صاحب جريدة الترقي– بإعادة إصدار جريدته تلك[15] وفي سنة 1908م ظهرت المطبعة الدولية وهي أوّل مطبعة أدخَلت الحروف اللاتينية للولاة، ثم تلتها المطبعة الشرقية لصاحبها اليهودي (تشوية) سنة 1910م التي كانت تطبع منشوراتها بالحروف العربية واللاتينية [16].

وقد أسهمت هذه المطابع في ازدهار حركة الكتابة والنشر في ليبيا، فظهرت العشرات من الصحف والمجلات من أقدمها جريدة طرابلس الغرب التي بدأت في الصدور سنة 1866م وهي أوّل صحيفة رسمية ناطقة باسم الدولة، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية، ثم تلتها مجموعة من الصحف والمجلات، فقد شهدت البلاد إصدار ثلاث عشرة صحيفة، إضافة إلى الصحف الرسمية التركية، وقد غذّت تلك الصحف، والمجلات الأدبية الحركة الثقافية في ليبيا، وعملت على تثقيف أبناء الشعب الليبي وتعليمه، ووصله بتيارات الثقافة والفكر في شتى أنحاء العالم، وكذلك عملت الصحف،

والمجلات على نشر فنون الأدب المختلفة، فساعد ذلك على ازدهار الأجناس الأدبية من شعر ومقالة وقصة وحكاية ومسرحية وغير ذلك من فنون النثر الحديثة.

5- المكتبات العامة والخاصة:

عملت المطابع على طبع كتب التراث وإحياء ذخائر العرب، وتسهيل اقتناء تلك الكتب، والذخائر لتحافظ الأمة العربية على أصالتها، ولا تفقد شخصيتها الذاتية، وليطّلع النّاس عامة على هذه الكتب والذخائر وقراءتها بيسر؛ لذلك عمل بعض الناس على جمع الكتب المبعثرة هنا وهناك في مكتبات عامة أنشئت للحفاظ عليها من الضياع والتلف، وأنْ تكون هذه الكتب والذخائر في خدمة العلم وأهله، وفي متناول أيديهم، وكانت هذه المكتبات موزعة كالآتي:

أ- مكتبات عامة مثل: مكتبة الأوقاف التي تأسست عام 1898م، وتعد هذه المكتبة من أقدم المكتبات العامة في ليبيا وقد طرأ عليها تغيرات، حيث ضمّ إليها بعض المكتبات الخاصة مثل: مكتبة أحمد النائب ومكتبة مصطفى الخوجة الكاتب.

ب- كان لأغلب الكتاتيب والمساجد والزوايا المنتشرة في ربوع البلاد مكتبات خاصة بها لعل من أبرزها: مكتبة مدرسة عثمان باشا الساقزلي ومكتبة جامع أحمد باشا القرمانلي، ومكتبة زاوية أحمد الزروق، ومكتبة زاوية طبقة، ومكتبة زاوية الجغبوب، ومكتبة زاوية ألاد سيهل وغيرها كثير(17).

ج- المكتبات الخاصة:

كان لأعيان البلد ووجهائها المتعلمين مكتبات خاصة بهم مثل: مكتبة أحمد النائب المتوفى سنة 1914م والتي توارثت عائلته القضاء الشرعي في البلاد كما يتوارث الثقافة واقتناء الكتب ومكتبة إسماعيل كمالي ومكتبة مصطفى الخوجة، وقد قامت هذه المكتبات بدور مهم في حياة الناس وبخاصة أهل العلم حيث وفرت هذه المكتبات الكتب والمخطوطات والوثائق للاطلاع والنسخ والاقتناء لطالبيها من المثقفين والشعراء والأدباء والقراء وبذلك تكون المكتبات قد أسهمت في الرقي الثقافي والفكري في البلاد آنذاك.

6- النوادي والجمعيات الأدبية:

ما يلحظه المتتبع لهذه الفترة يجد أنّ بعض الشعراء والأدباء كوّنوا هيئات، وروابط، وجمعيات أدبية خاصة بهم ترعى شؤونهم، وتكوّن مقرّ لهم يجتمعون فيها ليتواصلوا ثقافياً ويتناقشوا في أمورهم، وشؤون حياتهم، وتقوم هذه الهيئات بنشر أعمالهم وخلاصة أفكارهم، ونتاجهم العلمي والأدبي، ويتبعون كل ما هو جديد، ومعرفة طريق النجاح، وتهيِّء هذه التجمعات المناخ الملائم لناشئة الأدباء، وتسهّل لهم أمر الطباعة والنشر، وتقوم بتوزيع نتاجهم العلمي، والأدبي ولعل أقدم جمعية عربية أُنشئت لهذا الغرض الجمعية السورية التي تأسست ببيروت عام 1827م، ثمّ تواصل ظهور الجماعات، والهيئات، والجمعيات الأدبية في الوطن العربي ولعلّ من أشهرها جماعة أبولُّو التي تأسست في القاهرة عام 1932م، وفي ليبيا تأسس نادي طرابلس الأدبي سنة 1920م، ثم ظهرت جمعية عمر المختار سنة 1943م ببنغازي.

7- الرباط:

الرباط: هو مركز إنذار ومراقبة وتحذير من العدو فال ابن منظور: الرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله للفريق الآخر، ثم صار لزوم الثغر رباطا، والرباط: المواظبة على الأمر، وفي الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب والمصدر الرباط، أي الملازمة، وقيل هو اسم لما يربط به الشيء ويشد، وجمعه الرُّبُطُ(18)، والمعنى الاصطلاحي للرباط لا يبتعد عن معناه اللغوي، فهو عند الفقهاء احتباس النفس في الجهاد والحراسة، أما الصوفية فيطلقون هذا المصطلح على الأماكن التي يجمعون فيها بين العبادة والجهاد مع المداومة والالتزام بذلك، وسموها كذلك لأنها تربط صاحبها عن المعاصي، وتكفه عن المحارم(19) وعلى هذا الوجه فإن الرباط لا يشترط في وجوده مكان معين، بل قد يكون على الساحل أو داخل المدن والقرى، وقد أطلقت العديد من المصطلحات على الرباط مثل: المسجد عندما يقام به محرس أو المحرس الذي يكون في مكان مرتفع للاستطلاع والمراقبة حيث يقوم ساكنوه بحراسة

الثغور وتأمين الطرق إضافة إلى مصطلحات أخرى مثل: الحصن والقلعة والقصبة والقصر، ولعل أقدم هذه المصطلحات شيوعا واستعمالا هو مصطلح (الرباط) الذي غالبا ما كان يطلق على أماكن التعبد والممارسة الصوفية، وقد انتشرت الأربطة والمحارس على طول الساحل الليبي لنقل الأخبار والإنذار عن أي أخطار ودق الطبول عند الحاجة لمجابهة المخاطر، وقد اشتملت هذه الأماكن على مراكز دينية وتعليمية[20] قد ظلت هذه الأربطة علامة مضيئة ونموذجا حيّا في ترقية الثقافة الإسلامية ونشر أسبابها بين الناس.

8- طريق الحاجية:

تمر بليبيا سلسلة من الطرق البرية تربط كل من: المغرب والجزائر وتونس بالأماكن المقدسة في مكة وهي التي يسلكها الحجاج لأداء مناسك فريضة الحج وتعرف عند الليبيين بطرق الحاجية، حيث يسلك هؤلاء الحجاج الطريق الساحلي مقتفين ساحل البحر أو قريبين منه وبهذا الطريق أو على مقربة منه توجد جميع المحارس أو الرباط التي نشأت بعد ذلك كالمرابطة وهذه الطريق لا زالت معروفة ويطلق عليها طريق الحاجية، وقد أقيمت على هذه الطريق العديد من أماكن العبادة والزوايا وكذلك أماكن الإقامة ونقاط لحط الرحال عندما توجد أماكن تتوفر بها المياه والتزود بالمؤن وما يحتاجه الحاج من مستلزمات، وتوجد كذلك طرق برية أخرى مثل: طريق غدامس، الجفرة، الواحات، سيوة تربط المغرب والجزائر وجنوب تونس بالأماكن المقدسة عبر مصر، كما توجد طريق مرزق زويلة، وتأتي أهمية هذه الطرق من كونها أدت كبيراً في العمران وإقامة المساجد وإنشاء الزوايا التي أسهمت في نشر الثقافة الإسلامية والعربية والتبادل الثقافي بين هؤلاء الحجاج[21] إضافة إلى طريق الحاجية كانت هناك طرق القوافل التي تجوب البلاد غرباً وشرقاً، وشمالا وجنوباً الأمر الذي جعل عدداً من العلماء والأدباء والمثقفين المغاربة والمشارقة يمرون بهذه البلاد لتحقيق أغراض معينة، ومنهم من أتيحت له فرصة الإقامة في ليبيا لفترة زمنية تكفي العالم والأديب والمثقف المار بليبيا

أن يتصل ويحتك ويتفاعل مع علمائها وأدبائها ومثقفيها وطلاب العلم والمعرفة فيها وأن يفيد بعلمه وآدابه وثقافته ويستفيد في المقابل من زملائه الليبيين[22].

9- حركة الشعر في هذه الفترة:

إنّ الدارس للحركة الشعرية في ليبيا أثناء الحكم العثماني لها يلحظ قلة شعراء اللغة العربية الفصيحة، حيث لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة وأشهرهم محمد فالح بن محمد بن عبد الله ابن فالح الظاهري الذي يعدّ من الأصول الأولى في نشأة الحياة الأدبية في الزوايا الدينية، وأكثر شعره فُقد، شأنه في ذلك شأن شعراء هذه الحقبة[23]، وكذلك الشاعر أحمد الطائفي الذي كان معلّماً بالزاوية البيضاء، وكان يعالج الشعر بطريقة متكلّفة [24]، ثم جاء بعدهما كلّ من الشاعر: عبد الرحيم المغبوب، وأبو سيف مقرّب البرعصي، حيث يعدّان من الشخصيات الأدبية الأولى في هذه الفترة[25]، ولمعت بعد ذلك جماعة في سماء الشعر نذكر منهم: عبد الله السنّي وابنه محمد، وأحمد بن إدريس الأشهب، وقد غلب على شعر هؤلاء وغيرهم من شعراء هذه الحقبة الصنعة وتكلف أوجه البلاغة لاسيما الإكثار من المحسنات البديعية التي حفل بها الشعر آنذاك.

أمّا الشعراء الذين جاءوا بعد ذلك فمن أشهرهم مصطفى بن زكري الذي طُبع له ديوان شعر عام 1892م، وصدور هذا الديوان كانت البداية الحقيقية للمدرسة الشعرية الحديثة في هذا البلد غير أنّه لا يمكن بأي حال من الأحوال تحديد بداية ظاهرة شعرية معينة بسنة محددة، وأنَّ طبع هذا الديوان لا يعني بالضرورة أن يكون البداية الحقيقية لشعر الحداثة في ليبيا، وإنما هو بداية طبع ونشر الشعر حيث حررت شهادة ميلاد تؤكد بأنه أول ديوان شعر ليبي مطبوع[26] ويكون ابن زكري قد سجّل بطبعه ديوانه هذا بداية السلسلة المنشورة حتى اليوم، وقد احتفل مؤخّراً بالذكرى المئوية لصدوره تحت عنوان مئة عام من الشعر، والمتتبع لهذا الديوان يلحظ أنّ ابن زكري كان يجاري ذوق أهل عصره في عنايته بالمحسنات البديعية، بإظهار مقدرته البلاغية، واستخدام مصطلحات العلوم، مثل قوله:

وجنى الجنتين من وجنتيه　　　يانع غير أنّه غير دان

فالمحسنات البديعية من جناس ناقص ونحوه واضحة في البيت، وتبدو الصنعة والتكلّف واضحة كما في قوله مادحاً:

وفي صدره بحر من العلم وافر　　　طويل مديد كامل لا يحدد

فالكلمات بحر، وافر، طويل، ومديد مصطلحات عروضية، وديوانه قائم أغلبه على فن الغزل فهي مادته الرئيسة، وخالٍ من شعر المناسبات.

وبعد طبع ديوان ابن زكري بخمس سنوات ظهر ديوان عبد الله الباروني النفوسي، وكذلك طُبع ديوان الشاعر المجاهد سليمان الباروني، وعلى أية حال فإننا نلمح في قصائد شعراء هذه المرحلة البساطة في التعبير، واختيار الوزن الشعري الخفيف، وغلب على قصائدهم الشعر الديني الذي أكثروا فيه من التوسّل وطلب الشفاعة كما حثوا فيه على الجهاد في سبيل الله.

أمّا بالنسبة لفن الغزل فقد ندر في أشعارهم، وكان محتشماً إلى حد كبير؛ لأن هؤلاء الشعراء تثقّفوا بالثقافة الدينية وبخلق القرآن الكريم والعلوم الشرعية، فحجبهم ذلك عن التعبير عن عواطفهم تجاه المرأة والحب، ولم يعد لها تأثير في نفوسهم فجاء شعرهم مصطنعاً [27]، يقول إبراهيم باكير:

يا قُضاة الحّبِّ إنِّي　　　مُغرَمٌ والعِشْقُ منِّي
لي بـ (بابِ البحرِ) ظبْيٌ　　　مائِسٌ حُلو التَّثَنِّي
فائقُ الحُسنِ ولكن　　　طبْعه يهْوَى التَّجّنِّي
ليت شعْري ما عراهُ　　　بعد ذاك القرْب منِّي
حسبك الله تعالى　　　أيُّها المعرِضُ عنِّي[28]

وهذا أحمد الفقيه حسن (الجد) يتغزّل براقصة غربية قائلاً:

رُومية بهرتْ بتلْعِيباتها　　　فاقتْ بحُسن شمائِل أخواتها
السُّكر في رشفاتها والموت في　　　رشقاتِها والسّحر في لحظاتها

فــــــــتّانة فتّـــاكة قتــّالة **لكن تُعيد الروح منْ عطفاتها**
فإذا رنت شزراً إليك بعـــــيْنها **فاحذر طِعان الهذب من كسراتها**

وظهر في مدينة بنغازي مجموعة من الشعراء كان في طليعــتهم عبــد الســلام أبوهديمة الذي وصفه معاصروه بقوة الذكاء وطلاقة اللسان وفصاحته، وهو شاعر وأديب متمكن من ناصية اللغة، يجيد شعر الفصحى والعامية، ومع هذه الشهرة لم نستطع الوقوف على آثاره في الشعر إلا على القليل، وقد سيطر على شعره الجناس الذي كان مولعــاً بــه أشد الولوع[29].

وخلاصة القول فقد ظلّ الشعر في ليبيا خلال هذه الحقبة الزمنية متــأثّراً بالشــعر العربي في فترة الحكم العثماني للبلاد، فقد كان عبارة عن قوالب جــاهزة مــن منظــوم الكلام، وزخارف لفظية ترجع في مجملها إلى محسنات الصنعة البديعية، وغيرهــا مــن وسائل التلاعب بالألفاظ كالأحاجي والألغاز ونحو ذلك من الأمور التي استحدثها المماليك والأتراك الذين لم يتذوّقوا بعد حلاوته، وحلاوة اللغة العربية، فلم يكونوا ذوّاقين للشــعر، ولا يدركون خفاياه، وأسراره كما يدركها الشاعر العربي الأصيل، وأما الشعر فكــان لا " يقصد به غير الوزن، والاستكثار من محسنات الصنعة، فملأوه بالتورية والكناية والجناس والترصيع، وجعلوا قصائدهم كلها كأنّها شواهد نظموها ليشيدوا بها كتب البيان، والبــديع، وظهر في شعرهم التطريز والتعمية والتشطير والتخميس، وراح الشعراء يتبــارون فــي اللغة بالألفاظ، وجمعها كما يتبارى الأطفال في جمع الحصى الملونــة وتنضــيدها" [30]، وبذلك صار الشعر عبارة عن ألفاظ متجاورة متواليــة لا جــامع بينهــا ســوى الأوزان الخليلية، وحرف الروي المتكرر، وأصبح الشعر عبارة عن قوالب جاهزة لا رابط بينهــا كالرّقع المتناثرة في ثوب بالٍ، فلا يوجد في القصيدة وحدة نفسية، أو موضــوعية تجمــع شتات القصيدة، وكلمات لا تحس أنها تقدم فهماً عاماً لســياق الــنص الشــعري، وفقــدت الألفاظ دلالتها ومعانيها، وظلّ الشعر على هذه الحال إلى أن جاء بعض الشعراء يجــددون في نظم القصيدة العربية الحديثة.

الخلاصة:

بعد فترة طويلة من العقم والركود الثقافي والفكري شهدت البلاد أواخر العصر العثماني بعض التطور الثقافي والفكر إذ انتشر التعليم الديني على نطاق واسع حتى عمّ جميع المناطق وذلك عن طريق الكتاتيب والمساجد والزوايا المقامة على أغلب التراب الليبي، وظهرت كذلك المدارس ورياض الأطفال على النظام الحديث، وأخذ خريجو الزوايا الدينية وطلاب العلم في الرحلة شرقاً وغرباً فعادوا إلى البلاد بعد أن حصلوا على أعلى الشهادات العلمية ليتولوا قيادة البلاد علمياً وثقافياً كما ظهرت المطابع بإنشاء مطبعة الفنون والصنائع سنة 1895م وأخذت الصحف في الظهور والانتشار مثل: جريدة الترقي وطرابلس غرب ولا تخلو هذه الجرائد من طرفة أو قصة أو أبيات من الشعر كما كان للمكتبات العامة والخاصة دور كبير في حفظ الكتاب وتوفيره ونشره ووضعه بين أيدي القراء وقد أدت هذه العوامل مجتمعة دوراً كبيراً في تنشيط الحركة الثقافية ونشر الوعي الثقافي والفكري وبذلك أخذت الحركة الثقافية تتلمس طريقها نحو الرقي والتقدم.

هوامش البحث :

(1) ينظر، خليفة التليسي، رفيق شاعر الوطن، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس 1988م، ص 35.

(2) الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، الطبعة الثالثة مارس 2004م، ص 409.

(3) أحمد القطعاني، الإسلام والمسلمون في ليبيا، الواثقون للمقاولات، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى2011م، ج 4 ص 353.

(4) ينظر، أبو محمد عبد الله محمد بن أحمد التيجاني، رحلة التجاني، دار الفرجاني للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس ليبيا، ص 212

(5) المرجع نفسه، ص 214.

(6) ينظر، محمد مفتاح أبوتبر، الحركة الشعرية في ليبيا في النصف الثاني من القرن العشرين، **رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 2002م**، ص2.

(7) علي مصطفى المصراتي، أحمد الشارف دراسة وديوان، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، الطبعة الثالثة يناير 2000م، ص 24.

(8) المرجع نفسه، ص 23.

(9) ينظر، الطيب علي الشريف، ومحمد مولود خماج، ملامح ثقافية، دار شموع العلم الزاوية ليبيا، الطبعة الأولى 2006م، ص 34.

(10) ينظر، عمر التومي الشيباني، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا، جامعة طرابلس، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 2000م، ص 227.

(11) جريدة برقة العدد 758 السنة الرابعة يوليو 1944م.

(12) ينظر، عمر التومي الشيباني، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا، جامعة طرابلس، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 2000م، ص 226.

(13) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1983م، ج 2 ص 403.

(14) ينظر، قريرة زرقون، الحركة الشعرية في ليبيا في القرن العشرين، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان المغرب سنة 2000، ص 26.

(15) ينظر، عبد العزيز الصويعي، بدايات الصحافة الليبية، ص 119.

(16) ينظر، قريرة زرقون، الحركة الشعرية في ليبيا في القرن العشرين رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان المغرب سنة 2000، ص26.

(17) ينظر، عبد محمد الشريف، ومحمد امحمد الطوير، دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، ص 28.

(18) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة 1984م، ج7 ص302.

(19) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(20) ينظر علي الميلادي عمورة، القلاع والحصون والقصور والمحارس على التراب الليبي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ليبيا 2005، ص210.

(21) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(22) ينظر، عمر التومي الشيباني، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا، جامعة طرابلس، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 2000م، ص 226.

(23) ينظر، محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1983م، ص 308.

(24) ينظر، محمد طه الحاجري، محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1983م، ص 310.

(25) ينظر، المرجع نفسه، ص 312.

(26) الصيد أبو ذيب، الشعر الليبي في القرن العشرين مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 12، 1995م، ص298.

(27) ينظر، قريرة زرقون، الحركة الشعرية في ليبيا في القرن العشرين (رسالة دكتوراه)، ص43.

(28) علي مصطفى المصراتي، لمحات أدبية عن ليبيا، ص 113.

(29) ينظر، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، الطبعة الأولى 1983م، دار النهضة العربية، بيروت، ص 344.